لَـقـد كُـنـتُـمُ فـي آلِ عَـبْـسٍ كـوَاكـبـاً
إذا غـابَ مِـنـهـا كـوْكـبٌ لاحَ كَـوْكـبُ[١]
خُسِفتم جَميعاً في بُرُوجِ هُبوطكُمْ
جهاراً كما كلُّ الكَوَاكبِ تُنكبُ[٢]

برق حسامي صادق

قال في إغارته على بني عامر:

[الوافر]

ألا يـا عَـبْـلَ، قَـدْ زَادَ الـتّـصَـابـي،
وَلَـجّ، الـيَـوْمَ، قَـوْمُـكِ فـي عَـذابـي[٣]
وَظَـلّ هَـوَاكِ يَـنْـمُـو كُـلَّ يَـوْمٍ،
كَـمَـا يَـنْـمُـو مَـشـيـبـي فـي شَـبَـابـي[٤]

(١) يحاول الشاعر أن يُثير في آل زياد النخوة، فتاريخهم حافل بالمكرمات والفضائل، فقد كانوا بمثابة الكواكب تنير دروب البائسين في القبيلة، وهم يتوارثون المجد جيلاً بعد جيل.

(٢) وأعمالكم جرّت عليكم ويلات أدت بكم إلى أن تزلّ أقدامكم وتهوي بكم إلى الحضيض. وتلك حال الكواكب تفقد شعاعها ووهجها.

(٣) التصابي: شدّة الشوق إلى الحبيب. لجّ: ألحّ. يخاطب الشاعر عبلة شاكياً لها همومه الناتجة عن شدّة تعلقه بها وحبه لها، فضلاً عمّا يُعانيه من مكر قومها وعملهم الدّؤوب على إبعادها عنه بشتّى الوسائل.

(٤) مسير متوازٍ، حيث لا لقاء، فحبّ ينمو باضطراد ويزداد مع مرور الزمن الذي لا يتوقّف عند حدّ، ويرسم معالمه على رأس الشاعر فقد بدأ الشيب يغزوه بلا هوادة؛ والمرأة بطبعها تميل إلى الشباب الفتيّ.

عَـتَـبْـتُ صُـرُوفَ دَهـرِي فـيـكِ حـتـى
فَـنـي، وَأبـيـكِ، عُـمْـرِي فـي الـعِـتـابِ[١]
وَلاقَـيْـتُ الـعِـدا، وَحَـفِـظْـتُ قَـوْمـاً
أضَـاعُـونـي، وَلَـمْ يَـرْعَـوْا جَـنـابـي[٢]
سَـلـي، يـا عَـبْـلَ، عَـنّـا يَـوْمَ زُرْنـا
قـبـائـلَ عـامـرٍ وَبَـنـي كِـلابِ[٣]
وَكَـمْ مِـنْ فَـارِسٍ خَـلّـيْـتُ مُـلْـقًـى،
خـضـيـبَ الـرّاحَـتَـيـنِ، بـلا خِـضَـابِ[٤]
يُـحَـرّكُ رِجْـلَـهُ رُعْـبـاً، وَفـيـهِ
سِـنَـانُ الـرّمْـحِ يَـلْـمَـعُ كـالـشِّـهـابِ[٥]

(١) عِتاب متواصل، فُتحت له كلّ الدروب؛ فمصائب الدهر من جانب تتوالى تقضي على الأمل الذي يرافق العمر، عتبي على الدهر والأهل وعلى تقاليد المجتمع الفاسد، وعلى لوني وسوء حظي وقلّة حيلتي وعليك لقِلّة اكتراثك بي.

(٢) لم يَرْعَوْا جنابي: لم يهتموا لي، الأعداء كُثُر جابههم الشاعر بهمّة عالية وسلاح فتّاك، ولكنّ ما يحزّ في النفس الأقرباء، فرغم رعايته لهم والاستماتة في الدفاع، فإنهم لا يُبادلونه الحُسنى بالحسنى، بل جفاء يتبعه جفاء، ولم يحفظوا له ما قدّم لهم من عوْن.

(٣)، (٤) يطلب الشاعر من محبوبته أن تستعلم عن أخباره ووقائعه في الحروب؛ وحسن بريقها في بني عامر وبني كلاب، فهم لن ينسَوْا ما فعل عنترة بفرسانهم وقد لاقوا مصارعهم على يديه، فإذا بأيديهم غطتها الدماء الحمراء كأنها خضاب.

(٥) وهؤلاء الفرسان يكفيهم أن يسمعوا بذكر عنترة حتّى ترتجف أرجلهم خوفاً وتمتلئ قلوبهم رعْباً، فإذا برمحه يخترق الصدور والقلوب كأنه اللهب الساطع في ظلمة العمر.

قَـتَـلْـنَـا مِـنْـهُـمُ مـائـتَـيـنِ حُـرّاً،
وَأَلْـفـاً فـي الـشِّـعـابِ وَفـي الـهِـضَـابِ[١]

هجرتك فامضي

كانت عبلة قد أسمعته يوماً كلاماً يكرهه، فخرج عنها غضبان، وقال في ذلك:

[الطويل]

سَـلا الـقـلـبُ عَـمّـا كـان يَـهْـوَى وَيـطـلـبُ
وَأصْـبَـحَ لا يَـشْـكـو وَلا يَـتَـعَـتَّـبُ[٢]
صَـحـا بـعـدَ سُـكْـرٍ وَانـتَـحـى بـعـدَ ذِلّـةٍ
وَقـلـبُ الـذي يـهـوَى الـعُـلا يَـتَـقَـلّـبُ[٣]
إلـى كَـمْ أُدارِي مَـنْ تُـرِيـدُ مَـذَلّـتـي
وَأبـذُلُ جـهـدي فـي رِضَـاهـا وَتـغـضَـبُ؟[٤]

(١) يصف الشاعر ما أسفرت عليه المعركة؛ فقد انكشفت المأساة عن صرعى تناثرت أجسادها في كل الشعاب والهضاب والعدد كثير.

(٢) يبدأ الشاعر بمطلع وجدانيّ، لغته لغة القلوب، لغة الحبّ والعِتاب فعزاء القلب المجروح الابتعاد عمّا يجرحه، والنسيان باب واسع يودي بصاحبه إلى رحاب راحة البال والبعد عن الشكوى والعتاب، فالقلب تغمره مسحة حزن أليم.

(٣)، (٤) يتمتّع الشاعر بإرادة صلبة ورصانة عقل، شعوراً بكرامة لا تقبل بالذّل والمهانة فإذا كان في القلب هموم تعلو به نحو العلاء سرعان ما ينسى ما يُعتبر نقصاً بالرجولة الحقّة التي من أجلها يحيا المرء، لذا فإنه يدوس على مشاعر عابرة، فالمداراة لها حدود لا تقبل النفس الكريمة الانحدار بها إلى مهاوٍ في سبيل رضى من تنفر وتفتعل غضباً مزيّفاً كاذباً.